فتح جنوب إيطاليا وحصار جزيرة رودس

اتجه السلطان محمد الفاتح بعد عقد الصلح مع النبادقة نحو جزر اليونان الواقعة بين اليونان وإيطاليا في محاولة منه للسيطرة عليها والتمدد نحو إيطاليا، وتمكن في عام ١٤٨٠ من فتح زنطا وكورفوا وسان موري وكنالونيا، فأصبح الطريق إلى الجنوب الإيطالي ممهدًا ومفتوحًا أمام السلطان محمد الفاتح.

وكان فتح هذه البلاد كما ذكرنا هدفًا أساسيًا للسلطان محمد الفاتح ولسلاطين آل عثمان منذ أن وضعوا أقدامهم في أوربا الشرقية، ولما تهيأت الظروف في عهد محمد الفاتح تهيأت الظروف لتحقيق ذلك. ساد السلام والهدوء جميع الحدود الشرقية للدولة العثمانية، وأصبح في مقدور القيادة العثمانية أن توجه جهدها كله نحو الغرب.

واستغل محمد الفاتح الفرصة من أن نابولي لم تحترم معاهدة التحالف المبرمة بينها وبين الفاتح إذ أرسلت بعض سفنها لمساعدة رودس أثناء حصار العثمانيين للجزيرة، يضاف إلى ذلك فقد كانت إيطاليا مقطعة الأوصال بفعل الصراعات الداخلية بين دولها[1].

وأرسل الفاتح جيشًا بقيادة الوزير أحمد باشا نزل أفراده في الثامن والعشرين من تموز في (أترانتو) ففتحوها في الحادي عشر من آب ثم راحوا يشنون الغارات على المواقع الداخلية. وأرسل السلطان في الوقت نفسه أسطولاً بحريًا آخر بقيادة مسيح باشا لفتح جزيرة رودس وكانت مركزًا لفرسان القديس

(١) «محمد الفاتح» د/ سالم الرشيدي.

يوحنا حيث رأى في وجود هذه الجزيرة المحصنة المنيعة على بعد أميال فقط من أسيا الصغرى تهديداً خطيراً لدولته[١].

ورسا الأسطول العثماني في خليج ترياندا في شمال غربي الجزيرة، حيث تمكن الجنود من النزول إلى البر، واستولوا على المرتفعات المطلة على الشاطئ[٢].

ثم راحت القوات العثمانية تطلق مدفعيتها على قلعة القديس نيقولا التي كانت تتحكم بمداخل الميناء وتعتبر مفتاح المدينة[٣].

أعقب ذلك قيام هذه القوات بعدَّة هجمات على القلعة إلا أنها باءت بالفشل؛ حيث جوبهت بمقاومة مستميته من قبل سكان الجزيرة الذين تمكنوا من إحباط جميع المحاولات العثمانية لاقتحامها، واضطر مسيح باشا أخيراً إلي العودة إلى استانبول يجر ذيول الخيبة، وكان جزاؤه أن عزله السلطان من منصبه وأبعده إلى غاليبولي[٤].

ارتعد أمراء إيطاليا من شدة الخوف واستحوذ الرعب على البابا (سيكست الرابع) نتيجة الهجمات العثمانية على إيطاليا ورودس، ولاح له أن روما ستسقط في أيدي العثمانيين كما سقطت القسطنطينية، فدعا امراء إيطاليا وأوربا إلى التهادن وتناسي الخلافات والاتحاد في مواجهة العثمانيين، وضرب المثل بنفسه في تناسي الأحقاد فهادن أعداءه الفلورنسيين وصالحهم[٥].

---

(١) د/ يوسف العشي «الخلافة العثمانية» صولاق زاده (ص٦٤).

(٢) «الفاتح» الرشيدي (ص٣٥٩).

(٣) المصدر نفسه (ص٣٦٠).

(٤) «تاج التواريخ» سعد الدين (جـ١ ـ ص٥٧٥).

(٥) «محمد الفاتح» د/ الرشيدي (ص٣٦٩- ٣٧٠).

الفاتح .. الشخصية والإنجازات

لعل فتح القسطنطينية هو العمل الهام في حياة محمد الفاتح؛ لأن هذا الفتح كان الرسول ﷺ قد بشَّر به وأثنى على أميره في الحديث الشريف: «**لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش**»[١].

ويعد محمد الفاتح من الشخصيات التاريخية التي نالت ثناء المؤرخين العرب من شعرائهم الكثير، فمن المؤرخين نجد السخاوي يقول: إن السلطان محمد الفاتح كان ملكًا عظيمًا، اقتضى أثر أبيه في المثابرة على دفع الفرنج، بحيث فاقه. ومع وصفه بمزاحمة العلماء ورغبة في لقائهم، وتعظيم من يرد عليه منهم، ومن أمثلة الشعراء العرب الذين امتدحوا الفاتح الشعر أحمد منير، الذي يقول عنه:

أعظم لسلطانٍ يُوطِّدُ حكمَهُ ... حقٌّ يزين عهده ويُرَصِّعُ
لا يَستَعِزُّ بعُزْوَةٍ تُرْكِيَّةٍ ... لكن بحبلِ اللهِ إذْ لا يقطَعُ

وفي الجانب التركي يصف المؤرخ التركي علي عمت بركي، يصف الفاتح ويقول: كم كان عظيمًا، وكم كان عادلاً رحيمًا، فيه رقة وشفقة[٢]، أما المؤرخ التركي المشهور أحمد رفيق، فيقول عن السلطان الفاتح وعن العثمانيين: «كانت الغاية المنشودة لسلاطيننا - يعني سلاطين آل عثمان الأول خاصته - أن يخدموا الإسلام بسيوفهم، وقد كانت الأحاديث النبوية الواردة في فضل الجهاد، والمثوبة الموعود بها المجاهدون، حفزتهم إلى الجهاد، وكانوا في غزواتهم وحروبهم

---

(١) سبقت الإشارة إلى ضعف الحديث، رغم أن بشارة الفتح ثابتة قطعًا.

(٢) «العثمانيون والحضارة» د/ محمد حرب (ص٨١).

يرعون دين أعدائهم ويصونون أزواجهم وأموالهم وأعراضهم وللسلطان محمد الفاتح قصب السبق في هذا المضمار»[١].

وكان الفاتح عالمًا يحب العلم ويجيد عدة لغات بجانب لغته التركية، فقد كان يجيد العربية والفارسية واليونانية بجانب اللغة العبرية. وكان الفاتح رجلاً طويل القامة دروي الوجه، ممتلئ الوجنتين، مفتول العضلات شبه منقاري الأنف، وكان قائدًا بارزًا وإداريًا حقيقيًا، كاتمًا للسرِّ، لم يبح بأسرار الدولة حتى ولا لأصدقائه المقرَّبين، بإستثناء ما تقتضيه الضرورة، كما كان صبورًا على المصاعب، جسورًا أمام الأزمات، منضبط النفس قوي العزيمة، أمضى معظم حياته في الجهاد والكفاح الدؤوب والحركة الدائمة. دمَّر بيزنطة وفتح القسطنطينية، وحوَّل كنيسة أيا صوفيا إلى مسجد[٢].

وفي خلال الثلاثين سنة التي أمضاها في الحكم، قاد الجيوش شخصيًا في خمسة وعشرين حملة، ووسَّع حدود الدولة العثمانية من رقعة من الأرض مساحتها ٦٠٠ ألف كم٢ في بداية حكمه إلى رقعة مساحتها ٢,٢١٤,٠٠٠ كم٢.

وفي عهد محمد الفاتح، تحقق إقامة المزيد من الأبنية التي تجلت فيها روعة الفن المعماري، كما أنجز بناء كلية الفاتح بمعاهدها المختلفة، وهي ما يعرف اليوم بجامعة استانبول، وأسس الكثير من المدارس الشرعية الإسلامية، ليس في أستانبول فقط، بل في باقي المدن العثمانية، واكتشف في عهده قبر الصحابي الجليل: (أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه) على مقربة من أسوار القسطنطينية.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) د/ علي مون «تاريخ الدولة العثمانية» (ص٤١).

وكان الفاتح مسلمًا ملتزمًا بأحكام الشريعة الإسلامية، تقيًا ورعًا، وعالمًا محبًا للعلماء ومشجعًا للعلوم.

وكان محمد الفاتح يحمل في نفسه مكارم الأخلاق، ومما يدل على مكارم الأخلاق التي تمتع بها هذا السلطان أنه أبقى النصارى، خلاف ما أبقاه لهم من الكنائس والصوامع، كنيسة وحارة بتمامها، مراعاة لمهندس معماري يدعى (كريستبول) كان استعمله السلطان محمد الفاتح في بناء المباني، وأعطاه تلك الحارة بتمامها، لتكون ملكًا له ولذريته من بعده[١].

وكان الفاتح شاعرًا وأديبًا، ومشجعًا لحركة الترجمة من العربية إلى التركية، ومحبذًا للغة العربية التي كان يجيدها إجادة تامة، فضلاً عن التركية والفارسية، وكان يعرف اليونانية واللاتينية والعبرية.

تقول كتب الأدب العربي أنه كان على موهبة ودراسة في العروض والقافية، وفي شعره جمال لا يحتمل المراء؛ لأن معناه يسبق لفظه، وقد نشر المستشرق الألماني (ج. جاكوب) أشعاره في برلين عام ١٩٠٤م، بعد أن استخرجها من مجموعة محفوظة في مقر الكتاب في جامعة أوبسا الملكية، وقام التركي (كمال أديب) بنشر أشعاره في (أنقرة عام ١٩٤٦)، مع تصويرها من مخطوط تركي، بخط تعليق موجود في مكتبة (ملّت) في إستانبول[٢].

وتقول موسوعة اللغة التركية وآدابها في معرفة الفاتح بلغات عصره وثقافته: إن محمد الفاتح كان على معرفة واسعة بالآداب والرياضات والفلك والكيمياء، وكان عالمًا بالفلسفة الإسلامية محيطًا بالفلسفة اليونانية.

---

(١) «تاريخ الدولة العثمانية» إسماعيل سرهنك (ص٤٥).

(٢) «العثمانيون في التاريخ والحضارة» محمد حرب.

الفاتح والشعر

ذكر الدكتور/ محمد حرب عن عاشق حلبي في كتابه (مشاهد الشعراء): إن السلطان محمد الفاتح كان أدل من رتَّب ـ من بين السلاطين العثمانيين ـ ديوانًا فيه أجمل الغزليات والقصائد والقطع الشعرية، ومعنى هذا أن الفاتح كان أول شاعر في البيت العثماني، والشعراء في هذا البيت كثيرون ما بين سلطان وأمير.

ولغة الفاتح الشاعر تعتمد على اللغة العثمانية الكتابية التي أخذت تكاملها في القرن الخامس عشر الميلادي، وكان حريصًا في شعره على الجمال الخارجي للصراع، وهو وحدة القصيدة العثمانية ـ وسلامته ـ وامتاز الفاتح الشاعر باستخدام المضمون والمفهوم استخدامًا ناجحًا، ويكثر في أسلوبه استخدام المحسنات اللفظية، وكان هذا من سمات الشعر العثماني في عصر الفاتح.

إلا أن خصوصيات الفاتح الشاعر تتجلى فيما يقوله الناقد الأدبي التركي وصفي ماهر: يمكننا اعتبار الفاتح الشاعر واحدًا من أهم الشعراء في عصره، فلغته وتعبيراته قوية بالدرجة اللازمة للقوة، وإن كان ديوان الفاتح صغيراً إلا أن ما فيه من أشعار يكسب الفاتح صفة الشاعرية ومضمونات كلاسيكية قوية تعلو على التقليد والاتباع[1].

---

(١) المصدر السابق (ص٢٧٤).

ديوان الفاتح

ديوان الفاتح يُسمى: (ديوان عوني)، وعوني هو الاسم الشعري الذي اتخذه الفاتح في نظمه لأشعاره، هذا الاسم الشعري يُسمى المخلَص عند العثمانيين، وديوان عوني أي ديوان السلطان محمد الفاتح، كان مجهولاً حتى اشتغل به المستشرق الألماني جورج جاكوب، فقد جمع هذا المستشرق إحدى وعشرين قصيدة للفاتح من قصائده التي كانت متناثرة في تذاكر الشعراء العثمانيين، ووجد جورج جاكوب مجموعة خطية لأشعار الفاتح ضمن مجموعة في مكتبة أوبسالا الملكية، وكوَّن منها ديوانًا للفاتح نشره في برلين عام ١٩٠٤م.

ومن نماذج أشعار محمد الفاتح:

«أنا عبد لسلطان من عبيده

سلاطين هذه الدنيا،

ونور شمسه يُبهر الضحا،

وإذا ما قتلني بالسهم أو أهداب العيون،

فسواء على القتيل فتكه الحسام أم قتله السهام».

وترجم الدكتور/ حسين مجيب من شعر الفاتح قوله:

«هذا البستان إلى ذوي وذبول،

وإذا ما وافى الخريف فلا ربيع ولا رياض،

أنا ران شاهدت هذا الجميل ضاع الزمام من يدي فغلبت عليَّ تقواي وزهدي،

ألا لا يغرنَّكُ هذا الحسن يا من تتيه علينا بالحسن،

ومتى دام للجميل جمال؟ فالوفاء لنا الوفاء»[1].

---

(١) «تاريخ الأدب التركي» حسين مجيب المصري ـ القاهرة ١٩٥١م.

ومن شعر السلطان محمـد الفاتح الذي أورده عبد الوهاب غرام الذي أورده في (مجلة الرسالة ـ ١٠٣٣م) تحت عنوان: (طُرَف من شعر السلاطين) قوله:

سيذهب البستان من اليد،

سيأتي الخريف وتذهب الحديقة والربيع من اليد،

أيها الحبيب! أوف بالعهد، ولا يغرنك الجمال والنضرة،

يا ملكي، قد جعلتني أسيراً في سلسلة طرَّتك،

ويا رب لا تحررني من هذه العبودية، جور الحبيب،

وطعان العدو، وحرقة الفراق، وضعف القلب،

لهذه الألوان من الآلام خلقتني يا رب!

قد اجتمع على إحراقي وهدمي،

حرقة القلب، ونار الآهات، ودمع العين».

ومن شعر الفاتح في الدعوة الإسلامية قوله:

نيتي: امتثالي لأمر الله، وجاهدوا في سبيل الله،

وحماسي: بذل الجهد لخدمة ديني، دين الله،

وعزمي: أن أقهر أهل الكفر جميعاً بجنودي جند الله،

وتفكيري: منصب على الفتح، على النصر على الفوز، بلطف الله،

وجهادي: بالنفس وبالمال، فماذا في الدنيا بعد الامتثال لأمر الله،

وأشواقي: الغزو والغزو مئات الآلاف من المرات لوجه الله،

ورجائي: في نصر الله، سمو الدولة على أعداء الله[1].

---

(١) د/ محمد حرب «العثمانيون الحضارة».